الغزالى والفلاسفة *

للأستاذ حامد عبد القادر

المدرس بدار العلوم

— ٣ —

(١) تكلمنا فى المقالين السابقين عن تاريخ حياة الغزالى ، ووصفنا البيئة التى نشأ فيها ، و بينا أثر تلك البيئة فى نفسه ، وعرفنا الأسباب التى دعته الى الاشتغال بالفلسفة ، وقلنا إن أغراضه من الاشتغال بالفلسفة تشمل : —

(الامام الغزالى كما تخيله جبران خليل جبران)

١ — بيان الحقائق العلمية الفلسفية التى لا تعارض الشرع فى شىء .

٢ — الكلام على عقائد الفلاسفة الفاسدة ، و إقامة الأدلة القاطعة على بطلانها .

٣ — بيان أن العقل البشرى ، والفكر الانسانى وحده ، ليس كافيا للوصول الى معرفة الحقائق الالهية ، بل لابد من حجة أقوى من حجة العقل ، وهذه هى الحجة الشرعية .

٤ — وضع نظام فلسفى يكون أساسه الأحكام الدينية ، ولا يكون مخالفا لقواعد المنطق السليم .

والآن نود أن نبحث فى الغرضين : الأول والثانى ، أما البحث فى الغرضين الباقيين فنرجئه الى فرصة أخرى .

---

* راجع الجزئين الثالث والرابع من مجلة « المعرفة » ص ٣٠٥ و ٤٣٣

(٢) لكن من الواجب أن نعرف أولا أن المتتبع لآراء الغزالى ، وأقواله الفلسفية ، يرى أنه كان يفهم من الفلسفة معنى أوسع من معناها الاصطلاحى الذى نفهمه الآن ، فالعلوم الرياضية ، وعلم الاجتماع والسياسة ، وعلم النفس والأخلاق ، وعلم الفلك والطبيعة ، كل هذه كانت فلسفة فى نظره ، ولم يكن فى فهمه هذا شاذاً ، بل إنه كان جاريا على عادة عصره ، متبعاً آراء الفلاسفة من قبله .

(٣) ولذلك نراه يقسم الفلاسفة الى ثلاثة أقسام هم : —

أولا : الدهريون أو الزنادقة ، الذين ينكرون وجود الصانع ، ويقولون بوجود العالم بنفسه وبقائه الى الأبد بنفسه .

ثانيا : الطبيعيون ، الذين يبحثون فى عالم الطبيعة وما فيه من سماء وأرض ، وفى عالمى النبات والحيوان ، ويخوضون فى تعرف ما تكنه من عجائب وبدائع ، تثبت عظيم قدرة الصانع ، وتبرهن على كمال علمه ، ولكنهم مع هذا قد ضلوا ، فقالوا بفناء النفس ، تبعا لفناء المزاج الانسانى (١) وجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، والقيامة والحساب .

وهؤلاء أيضا زنادقة ، لانكارهم اليوم الآخر ، الذى لا يتم الايمان إلا باعتقاد أنه حق .

ثالثاً : الالهيون ، وهم متأخرون عن الطائفتين السابقتين ، ولذلك تصدوا للرد على الزنادقة ، وإبطال مذاهبهم وكشفوا عن فضائحهم ، ويعد الغزالى أرسطو آخر هذه الطائفة ، وفارس حلبتها ، وفيه يقول :

« ثم رد ارسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الالهيين رداً لم يقصر فيه ، حتى تبرأ من جميعهم ، إلا أنه استبقى أيضا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيره ، وتكفير متبعيه من متفلسفة الاسلاميين ، كابن سينا والفارابى وأمثالهم » (٢)

(٤) والآراء الفلسفية التى وصلت الى الغزالى عن الفارابى وابن سينا عن ارسطاطاليس ، والتى يكفر بها هؤلاء ومن تبعهم ، تنحصر عند الغزالى فى ثلاثة أقسام : قسم لا يجب إنكاره أصلا ، وقسم يجب التبديع به ، وقسم يجب التكفير به .

أما ما لا يجب إنكاره أصلا فيشمل « الحقائق العلمية الفلسفية التى لا تعارض الشرع فى شىء » ويدخل فى ذلك :

---

(١) الظاهر أن الغزالى يريد بالمزاج الانسانى التكوين الجسمى الخاص الذى يميز الانسان عن غيره ، ويريد بفناء ذلك المزاج موت الجسم ومفارقته الحياة .

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٢

١ — القواعد المنطقية التى تعرف بها شروط الحد الصحيح ، وطرق الأدلة ، وقوانين الأقيسة ، والأشكال وأنواعها ، وغير ذلك مما هو مذكور فى علم المنطق .

والغزالى لا يرفض ذلك ، ولا يعارض شيئا منه مطلقا ، بل إنه قد ألف فى المنطق كتابا يعتبر من أمهات كتبه يسمى « معيار العلوم »

٢ — الحقائق العلمية الثابتة بالمشاهدة والتجربة والبرهان ، فلا مجال للشك فيها ، لأنها « أمور برهانية ، لاسبيل الى إنكارها بعد فهمها ومعرفتها »

والعلوم الرياضية كلها من هذا القبيل ، فالغزالى يقبلها ، و يعدها من الأمور الضرورية ، التى لا بد منها لكل من يود أن يفهم الأشياء على وجهها .

٣ — المسائل النفسية والخلقية التى تتعلق بمعرفة صفات النفس ، وقواها وفضائلها ، ورذائلها ، وتبحث فى أسباب أمراضها ، ونقائصها ، وما عساه أن يكون لها من علاجات .

وهذا القسم يشمل : علم النفس ، والأخلاق ، والغزالى لا يرى غضاضة فى معرفتها وإذاعتها فى الناس ، كيف لا وهو يرى أن الفلاسفة قد أخذوا هذه التعاليم الأخلاقية « من كلام الصوفية وهم المتألهون المثابرون على ذكر الله ، وعلى مخالفة الهوى ، وسلوك الطريق الى الله تعالى ، بالاعراض عن ملاذ الدنيا ، وقد انكشف لهم فى مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها وآفات أعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ، ومزجوها بكلامهم توسلا بالتجمل بها الى ترويج باطلهم ، ولقد كان فى عصرهم ، بل فى كل عصر ، جماعة من المتألهين لا يخلى الله تعالى العالم منهم » (١)

ولعل القارىء يشعر معى بأن فى هذه العبارة شيئا من الميل نحو التصوف والمتصوفة ، ولا غرو فقائلها هو الغزالى ، الذى اختلط مذهب التصوف بلحمه ودمه ، وشغل كل شعوره ، فجعله لا يرى الخير الا فى اتباعه ، ولا الشر إلا فى تجنبه .

٤ — علم الطبيعيات الذى يبحث عن الأجرام العلوية ، وعن العناصر الأربعة (الماء والهواء والتراب والنار) ، وعن الأجسام التى تتركب منها ، من جماد ، ونبات ، وحيوان ، وما يعترى هذه من تغير بالامتزاج أو الاستحالة .

والغزالى يشبه هذه بعلم الطب « فكما أنه ليس من شرط الدين إنكار علم الطب كذلك ليس من شروطه إنكار ذلك العلم أى علم الطبيعيات ، الا فى مسائل معينة » ذكرها فى كتاب « تهافت الفلاسفة » فلا شىء مخالف للدين فى هذا العلم ، مادام الانسان يعلم « أن

---

(١) المنقذ ص ١٦ و١٧

الطبيعة مسخرة لله تعالى لا تعمل بنفسها بل هي مستعملة من جهة فاطرها » (١)

٥ — المسائل السياسية الخاصة بتدبير الملك ، وسياسة الرعية ، وهذه لا يتصدى لها الغزالي بسوء ، ولا يناصبها العداء ، ولا ينعى على الفلاسفة البحث فيها « فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية ، وإنما أخذوها عن كتب الله المنزلة على الانبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الاولياء والحكماء » (٢)

هذه هي الأمور الخمسة التي لا ينازع الغزالي فيها ، ويرى أن الدين لا يمنعه من معرفتها ، واعتقاد الحقائق الواردة فيها ، بل إنه يدعو الناس الى معرفتها ، كي يقدروا الله حق قدره ، ويعلموا ما في هذا الكون من عجائب ، وينظروا الى ما في أنفسهم من غرائب .

(٥) غير أنه يخشى على المطلعين على هذه العلوم من آفتين : آفة القبول وآفة الرد .

أما آفة القبول فتنشأ من أن المطلعين على هذه الحقائق اذا بحثوا فيها ، وتحققوا من صحتها ، فربما يظنون أن جميع تعاليم الفلاسفة من هذا القبيل ، أي من النوع البرهاني الحقيقي ، فيأخذون عنهم آراءهم على علاتها بدون تفرقة بين الحق والباطل ، وبين الخطا والصواب ، وبين النافع والضار ، فيكون في ذلك استدراج لعقولهم ، وقيادتهم الى حيث يضلون ، ويخرجون عن جادة الحق ، ويشكون في صحة أحكام الدين .

وأما آفة الرد فتنشأ من أن المسلم الجاهل ، الذي لا يفرق بين الحق والباطل ، ويتعصب لدينه تعصباً أعمى ، ربما يظن أن الفلاسفة الذين ضلوا في بعض العقائد الدينية الالهية ، يجب أن يكونوا ضالين في جميع عقائدهم ، فيهجم عليهم ، ويكفرهم بكل ما نسب اليهم ، ويكذبهم في كل ما نقل عنهم ، حتى اذا ما فرغ من ذلك التكفير ، وانتهى من ذلك التكذيب ، يأتي من علم هذه العلوم أو بعضها بالبرهان القاطع الذي لا يعتوره شك ، فيطلع على إنكارها في كتب المتعصبين للاسلام ، « فيعتقد أن الاسلام مبني على الجهل ، وإنكار البرهان القاطع فازداد للفلسفة حباً ، وللاسلام بغضا ، ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بانكار هذه العلوم ، فليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي أو الاثبات » (٣)

فغرض الغزالي من التحذير من هاتين الآفتين أن ينبه الانسان الى أنه لا يصح له أن يأخذ كل شيء يقوله الفلاسفة قضية مسلمة ، كما أنه لا ينبغي له أن يرفض ما يقولون بدون بحث وفكر ، بل يجب أن يكون موقفه في ذلك موقف العالم ، الذي أقل درجاته « أن يتميز عن العامي الغمر (٤) ، فلا يعاف العسل وإن وجده في محجمة الحجام ، وتحقق أن المحجمة لا

(١) المنقذ ص ١٥ (٢) المنقذ ص ١٦ (٣) المنقذ ص ١٤

(٤) الغمر بسكون الميم وضمها الذي لم يجرب الامور .

تغير ذات العسل ، وأن نفرة الطبع مبنية على جهل عامى منشؤه أن المحجمة إنما وضعت للدم المستقذر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه فى المحجمة ، ولا يدرى أنه مستقذر لصفة فى ذاته ، فاذا عدمت هذه الصفة فى العسل فكونه فى ظرفه لا يكسبه تلك الصفة ، فلا ينبغى أن توجب له الاستقذار ، وهذا وهم باطل ، وهو غالب على أكثر الخلق ، فمهما نسبت الكلام وأسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم قبلوه وإن كان باطلا ، وإن أسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ردوه ، وإن كان حقا ، فبهذا يعرفون الحق بالرجال لا الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال » (١)

والخلاصة أن الغزالى يرى أن العلوم الخمسة المذكورة من العلوم الفلسفية هى العلوم التى لا يكفر الفلاسفة بها بل هى من الحكمة والحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى يجدها ولو فى أفواه الفلاسفة .

أما العلم الذى يكثر فيه خطا الفلاسفة ، وتزل فى معرفته أقدامهم ، وتضل فى بحثه عقولهم ، فهو علم الالهيات ، الذى يجالدهم فى مسائله الغزالى ويصارعهم « ففيه أكبر أغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه فى المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيه ، ولقد قرب ارسطاليس مذهبه فيه من مذاهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابى وابن سينا ، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلا » (٢)

ومن الممكن تقسيم العشرين أصلا هذه الى ثلاثة أقسام هى : —

أولا : قسم أخطاوا فى إثباته فى كل من المقدمات والنتائج ، وهذا القسم يشمل اثنتى عشرة مسألة هى (١) أبدية العالم ، (٢) أزليته ، (٣) إنكار البعث وحشر الأجساد ، (٤) كون الكائن الأول (الله تعالى) لا يعلم الجزئيات ، (٥) كون ذات الأول لا تنقسم بالجنس والفصل ، (٦) نفى الصفات عن الله ، (٧) كون الأول موجوداً بسيطاً بلا ماهية ، (٨) كون السماء حيوانا متحركا بالارادة (٩) وجود غرض محرك للسماء ، (١٠) علم نفوس السموات بجميع الجزئيات الحادثة فى هذا العالم (١١) استحالة خرق العادات (١٢) استحالة الفناء على النفوس البشرية .

ثانيا : قسم عجزوا فيه عن إقامة الدليل العقلى على صحته ، مع أنه صحيح فى ذاته ليس مخالفا لما أتى به الشرع ، ويدخل فى هذا القسم سبع مسائل هى : —

---

(١) المنقذ ص ١٨ و١٩ (٢) المنقذ ص ١٥

(١) كون الله هو الصانع للعالم ، وكون العالم صنعه (٢) إثبات الصانع للعالم (٣) استحالة وجود إلهين (٤) نفى الجسمية عن الأول (٥) علم الأول بغيره (٦) علم الأول بذاته (٧) كون نفس الانسان جوهراً قائما بنفسه ليس بجسم ولا عرض .

ثالثا : المسألة الباقية وهى أن آراءهم تلزمهم القول بالدهر ونفى الصانع .

(٧) هذه هى المسائل العشرون التى وضع الغزالى فى بيانها والبحث فيها كتابا قيما هو كتاب « تهافت الفلاسفة » .

وقد ذكر الغزالى فى مقدمة هذا الكتاب أنه وضعه « ردا على الفلاسفة القدماء مبينا تهافت عقيدتهم ، وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفا عن غوائل مذهبهم وعوراته ، التى هى على التحقيق مضاحك العقلاء ، وعبرة عند الأذكياء » (١)

ثم هو يقول بعد ذلك « ليعلم أن المقصود (من تأليف هذا الكتاب) تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة ، فظن أن مسالكهم نقية من التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم . فلذلك لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر ، لا دخول مدع مثبت ، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعا به بإلزامات مختلفة ، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة وأخرى مذهب الكرامية (٢) وطورا مذهب الواقفية ، ولا أنتهض ذابا عن مذهب مخصوص بل أجعل جميع الفرق إلبا واحدا عليهم » (٣)

وفى هذه المقدمة يقول أيضا :

« هذا مع حكاية مذهبهم على وجهه ، ليتبين لهؤلاء الملحدة تقليدا ، اتفاق كل مرموق من الأوائل والأواخر ، على الايمان بالله واليوم الآخر ، وأن الاختلافات راجعة الى تفاصيل خارجة عن هذين القطبين ، اللذين لأجلهما بعث الانبياء المؤيدون بالمعجزات » (٤)

ومن هذه العبارات الثلاث يتبين لنا أن أغراض الغزالى من تأليف كتاب التهافت هى : —

أولا : أن يبرهن على بطلان آرائهم فى عشرين مسألة من المسائل الالهية .

ثانيا : أنه لم يكن متحكما ولا متحيزا فى البرهنة على بطلان هذه الآراء ، بل إنه يرمى بعض الفلاسفة ببعض ، ويبرهن على بطلان آرائهم بآراء غيرهم من الالهيين .

ثالثا : أن يقرر آراء الفلاسفة على وجهها ، على حسب ما يقررونها هم ، ليظهر للناس

---

(١) التهافت ص ٣

(٢) الكرامية طائفة من المجسمة ظهرت فى خراسان فى عهد الدولة الظاهرية — انظر كتاب « الفرق بين الفرق » . والواقفية هم فرقة الاسماعيلية السبعية — انظر « الملل والنحل للشهرستانى »

(٣) تهافت ص ٥

(٤) المنقذ ص ٢ ص ...

أنهم على الرغم من كونهم فلاسفة كانوا يؤمنون بالأصلين اللذين هما أهم أصول الدين ، وهما وجود الله تعالى وأن اليوم الآخر حق ، كى يثبت الايمان فى القلوب المزعزعة ، وتطمئن به النفوس المضطربة ، وذلك لعمرى هو الغرض الأساسى من اشتغال الغزالى بالفلسفة .

المسائل العشرون

(٨) يقسم الغزالى هذه المسائل الى قسمين : قسم يجب التكفير به ، وقسم يجب التبديع به . أما ما يجب التكفير به فثلاث مسائل خالف فيها الفلاسفة كافة المسلمين وفى ذلك يقول فى آخر كتاب التهافت : —

« فان قال قائل قد فصلتم مذاهب هؤلاء ، أفتقطعون بكفرهم ووجوب القتل لمن يعتقد اعتقادهم (قلنا) تكفيرهم لا بد منه فى ثلاث مسائل (إحداها) مسألة قدم العالم وقولهم إن الجواهر كلها قديمة (والثانية) قولهم إن الله تعالى لا يحيط علما بالجزئيات الحادثة من الأشخاص (والثالثة) فى إنكار بعث الأجساد وحشرها ، فهذه المسائل الثلاث لا تلائم الاسلام بوجه . ومعتقدها معتقد كذب الأنبياء »

ومن هذا يظهر أن الغزالى يعتبر المسألتين الاولى والثانية وهما أبدية العالم وأزليته مسألة واحدة ويسميها قدم العالم .

ومن المفيد جداً أن نذكر هنا رأى الفريقين فى كل من هذه المسائل الثلاث ، ليطلع القارىء على نموذج من كيفية معارضة الغزالى لخصومه ، وليتبين مقدرته النادرة على قرع الحجج بمثلها ، فنقول :

(٩) المسألة الأولى — قدم العالم (١)

يقول الفلاسفة إن العالم ذلك محدود متناه فى الأبعاد ، غير متناه فى الاستمرار أى أن له نهاية فى المكان ، وليس له نهاية فى الزمان ، ومن حيث إن الله تعالى هو السبب فى وجود العالم ، والعالم مسبب عنه ، والمسبب لا يختلف عن سببه أصلا ، فالعالم قديم أزلى أبدى كما أن الله تعالى قديم أزلى أبدى .

ولكن الغزالى يرى أنه مما لا يمكن التسليم به أن نفرق بين تصور النهاية المكانية ، وتصور النهاية الزمانية ، ويرى أن السببية بالنسبة لله تعالى يجب أن يكون معناها قوة خالقة مختارة . لا علة ينشأ عنها المعلول نشوءاً قهريا .

وبيان الأول أن قدرتنا على تصور نهاية للزمان ، أى تصور أول وآخر له ، ومن يقول بلا نهاية الزمان يجب عليه أن يقول بلا نهاية المكان .

(١) تهافت الفلاسفة ص ٢٠ — ٣٣

والقول بأن المكان يدرك بالحواس الخارجية وأن الزمان يدرك بالحواس الداخلية لا يغير الموقف ، ولا ينهض دليلا على وجود فرق بين الزمان والمكان من حيث الادراك ، لأننا لانخرج عن مقولة المحسوس ، سواء أكان الحس خارجياً أم باطنياً ، فكما أن المكان يتعلق بالجسم من حيث الحلول ، كذلك الزمان يتعلق بالجسم من حيث الحركة ، وما الزمان والمكان إلا أمران نسبيان ، منسوبان للاشياء العالمية ، مرتبطان بها ، أو أنهما أمران نسبيان يخلق الله فينا قدرة على فهمهما لنميز بين تصوراتنا للقريب والبعيد والماضي والحاضر والآتي وهكذا .

والخلاصة أنه لايتسنى لنا التفرقة بين الزمان والمكان ، من حيث النهائية واللانهائية .

و بيان الثاني أن الفلاسفة يفرقون بين الأعمال الالهية ، و بين الأعمال الصادرة من الكائنات الروحانية المزودة بالارادة ، وكذلك بين أعمال الروح أو العقل ، و بين الأعمال التي تحصل بالمصادفة .

ولكن الغزالي لايرى فرقا ، ولا يعتقد إلا بوجود أثر واحد وسببية واحدة هي سببية الكائن المريد .

و يفسر السببية في العالم الطبيعي بأنها مجرد تتابع في الوقت ، فانا نرى أشياء خاصة تتبع أخرى (أي ما يسمى بالسبب والمسبب) ولكننا لاندري بالضبط كيف تنشأ الثانية عن الأولى ، فهذا لايزال سراً غامضاً ، كما أننا لا نعرف شيئاً حقيقياً عن سبب تتابع الظواهر الطبيعية التي نشاهدها في الأجسام الطبيعية .

إذا كان الأمر كذلك ، وظهر لنا أن السببية واحدة في جميع الحالات ، و إذا علمنا أن الانسان يعمل بعض الأشياء من تلقاء نفسه في أي زمان ومكان يريد ، متى وجدت عنده القدرة على العمل ، فلم لايصح تطبيق ذلك على الخالق ، ولم لا نقول إن الارادة الصادرة عنها الأعمال ، هي السبب الوحيد الذي نعرفه ؟ ولم لا نقول إن الله قادر على خلق الأشياء بقدرته ، بناء على ما تقتضيه إرادته ، في أي زمان ومكان يشاء ، و إنه خلق العالم بهذه الطريقة ، في زمن خاص ، لأجل خاص ، في مكان خاص ؟

والفلاسفة لا يسلمون بان الله خلق العالم من لا شيء ، ولكنهم يسلمون بتغير صور الأشياء وصفاتها ، أي تحولها من أشياء الى أخرى ، أي أنهم يقولون بتحول صور المادة ، لا بخلقها من لا شيء .

ولكن الغزالي يسألهم : لماذا لا تجوزون خلق المادة من لا شيء ؟ ألا توجد بعض الصور الذهنية من العدم المطلق ؟ وألا توجد الأفكار بعد أن لم تكن ؟ وألا توجد الأرواح الفردية العديدة التي يقول بتجدد وجودها ابن سينا ويعترف بوجودها بعد أن لم تكن ؟

على أننا اذا قلنا إن العالم وجد من مادة هي السبب في وجوده ، فان الغزالي يسأل :

كيف وجدت هذه المادة ؟ وهكذا الى ما لا نهاية له من الاسئلة والأسباب ، فيكون موقفنا هنا مثل موقفنا فى أمر الزمان والمكان ، فلاجل أن نتصور وجوداً محدوداً لابد لنا من القول بوجود إرادة أزلية ، هى السبب الأول ، ولابد أن تكون مغايرة لجميع الأسباب ، ولابد من القول بحدوث العالم ، أى بان له أولا وآخراً ، تحدوهما تلك الارادة الأزلية .

(١٠) المسألة الثانية عدم علم الله تعالى بالجزئيات (١)

يقول الفلاسفة إن الله تعالى يعلم الكليات ، ولا يعلم الجزئيات ، أى أنه يعلم أن فى العالم كذا وكذا من أنواع الأفلاك ، ومن أنواع الجمادات ، ومن أنواع النبات والحيوان ، ولكنه لا يعلم تفصيل هذه الانواع ، ولا ما يدخل فيها من أفراد ، ولا ما يفعل هؤلاء الأفراد ، لاستحالة ذلك عليه تعالى ، لأن هذه الجزئيات متغيرة متجددة ، فالعلم بها يكون ولا محالة متغيراً ، ومحل المتغير متغير فيكون الله تعالى متغيراً ، وهو محال ، ولكن الغزالى يرد على ذلك بأنه لا مانع من أن نفرض تغير العلوم مع بقاء العلم كما هو ، بدون تغير ، على أنه كما أن الجزئيات متغيرة ، كذلك الكليات متنوعة ، منقسمة إلى أجناس وأنواع ، فاذا كان العلم بالمتغير متغيراً ، كان العلم بالمتنوع المنقسم متنوعا منقسما ، وإذا كان تغير العلم يستلزم تغير العالم ، كان تنوع العلم وانقسامه يستدعى تنوع العالم وانقسامه ، فما يلزم من العلم بالجزئيات على رأى الفلاسفة ، يلزم من العلم بالكليات أيضا فأين الفرق ؟ ثم إن الغزالى يذهب إلى أبعد من ذلك ، فيفهم الفلاسفة باحالتهم على مذهب جهم وأتباعه القائلين بجواز أن يكون القديم محلا للحوادث المتعددة ، وإذن لا يكون برهان الفلاسفة قطعياً ، إذ لو كان قطعياً لما خالفهم فيه غيرهم .

(١١) المسألة الثالثة — عدم حشر الأجساد (٢)

وبيان هذه المسألة أن الفلاسفة ينكرون بعث الأجساد ، ورد الأرواح إلى الأبدان ، ووجود اللذات والآلام الجسمانية فى الآخرة ، من جنة ونار ، وقصور وأنهار ، وحور عين وولدان ، وسائر ما وعد به الناس من النعيم الحسى ، وماخوفوا به من العذاب الجسمى ، ويقولون إن النفس هى التى تبقى بعد الموت ، بقاء سرمديا إما فى لذة وإما فى ألم ، وتتفاوت طبقات الناس فى درجات الألم واللذة ، تفاوتا غير محصور ، فيكون هناك لذة سرمدية للنفوس الكاملة بالعلم والعمل ، وألم سرمدى للنفوس الناقصة الملطخة بالرذائل ويكون هناك لذات وآلام بين هاتين الدرجتين متفاوتة فى القوة والضعف وفى الاستمرار والانقضاء .

ومن براهين الفلاسفة على رأيهم هذا : —

(١) تهافت ص ٥٥ — ٥٧ (٢) تهافت ص ٨١ — ٩٠

أولا : إن النعيم العقلى أشرف من النعيم الجسمانى ، كما هو مشاهد فى الملائكة بالنسبة للسباع ، وكما هو معروف فى أحوال الانسان، أما ماورد فى الشرع مما يدل على أن نعيم الآخرة جسمانى فهو مجرد أمثلة ضربت لعوام الخلق ، لتفهيم ثواب وعقاب روحانيين ، هما أعلى منزلة من الجسمانيين (١) فهم يؤولون الآثار الواردة فى الأديان بوصف الثواب والعقاب الحسيين ، كما يؤولون الآيات التى يشم منها رائحة تشبيه الخالق بالمخلوق .

ثانيا : إن إعادة الأرواح إلى الأبدان مستحيلة عقلا، لأننا إذا قلنا باعادتها إلى أجسامها الدنيوية كان ذلك محالا ، لأن تلك الأجسام تتحلل ، ويأكل بعضها الهوام والديدان ، ويتداخل بعضها فى بعض ، ويدخل بعضها فى تكوين كائنات أخرى ، وتتحول إلى صور مختلفة ، وربما تصبح مواد لأجسام أخرى ، فاذا أعيدت الأرواح ، فالى أى الأبدان تعاد ؟ وكيف نتصور عود الأجسام بعد تشتتها ، وتفرقها وتداخل بعضها فى بعض ؟ وإذا قلنا باعادتها الى أجسام أخرى كان ذلك قولا بالتناسخ الذى هو محال .

ثالثاً : إننا لو سلمنا جدلا بامكان جمع الأجزاء المشتتة بأية طريقة ، وتركيب الأجسام مرة أخرى ، فلا بد من الانتظار مدة طويلة ، حتى تتطور تلك الأجزاء وتنتقل من تطور الجماد مثلا إلى نطفة ثم إلى علقة ثم إلى مضغة ثم إلى عظام وهكذا — هذا موقف الفلاسفة —

أما الغزالى فانه : —

أولا : لا ينكر أن النعيم العقلى أشرف من الجسمانى ، ولا يخالف الفلاسفة فى القول بأن النفوس تنعم وتعذب فى الآخرة ، لعدم مخالفة ذلك للشرع ، ولكنه يعارضهم من وجهين : الأول انهم قد وصلوا إلى ذلك بالدليل العقلى ، وهو لا يعترف بحجة الدليل العقلى ، لجواز وقوعه فى الخطأ كما قدمنا ، الثانى انه يجوز الجمع بين اللذات والآلام الجسمانية والروحانية ، ويسأل الفلاسفة لماذا لا يمكن الجمع بينهما ، بل إنه يرجح ذلك ، لينال الجسم قسطه من اللذة والألم فى الآخرة ، فى نظير آلامه ولذاته فى الدنيا .

أما ما يقوله الفلاسفة من أن الآثار الواردة الدالة على اللذة والألم الحسيين يجب تأويلها كما نفعل فى الآثار التى يؤخذ من ظاهرها التشبيه ، فالغزالى يرد عليه بان هناك فرقا بين الأمرين ، إذ أن آثار التشبيه : (١) محدودة (٢) من السهل تأويلها (٣) بل من الواجب تأويلها لاستحالة الأخذ بظاهرها .

ثانيا : يرد الغزالى على اعتراض الفلاسفة الثانى فيقول : لا مانع مطلقا من إعادة الروح

---

(١) تهافت ص ٨١

الى بدن لا بعينه ، لأن الانسان بروحه لا بجسمه ، والمهم فى الجسم هو المادة لا الصورة والهيئة الخاصة .

وإعادة الروح الى جسم مناسب لها ضرورية . حتى ولو أدى ذلك الى القول بالتناسخ ، إذ أن « ما ورد الشرع به يجب تصديقه ، فليكن تناسخا ، وإنما نحن ننكر التناسخ فى هذا العالم فأما البعث فلا ننكره سمى تناسخا أو لم يسم » (١)

ثالثا : أما مسألة الانتظار مدة طويلة ، حتى تتطور أجزاء الأبدان ، وتتحول من صورها الأصلية الى صور الأبدان الأخروية ، فيرد عليه الغزالى بقوله : إن أمر الانتظار وعدمه غير مهم ، مادمنا نقول ببعث الاجسام ، وما دمنا نعتقد أن الترقى فى هذه الأطوار يحصل بمجرد القدرة من غير واسطة أو بسبب من الأسباب » (٢)

على أنه من الممكن أن يتم ذلك وأن تترقى الأجزاء فى تلك الأطوار بطرق غير معهودة ، اذ أن « فى خزانة المقدورات عجائب وغرائب لم يطلع عليها ، ينكرها من يظن أن لا وجود الا لما شاهده ، كما ينكر طائفة السحر ، والنارنجيات ، والطلسمات ، والمعجزات ، والكرامات ، وهى ثابتة بالاتفاق ، لأسباب غريبة لا يطلع عليها ، بل لو لم ير انسان المغناطيس وجذبه للحديد ، وحكى له ذلك لاستنكره ، وقال لا يتصور جذب إلا بخيط يشد عليه ويجذب ، فانه المشاهد فى الحس ، حتى اذا شاهده تعجب منه ، وعلم أنه قاصر عن الاحاطة بعجائب القدرة ، وكذلك الحال فى الملحدة المنكرة للبعث والنشور » (٣)

والخلاصة أن الغزالى يقول : إن إمكان البعث لا يمكن إنكاره عقلا ، وإن التقاء الروح بالبدن مرة ثانية ليس بأعجب ولا بأصعب من التقائهما فى الحياة الدنيا ، ذلك الأمر الذى لا ينكره الفلاسفة أنفسهم ، ومما لا شك فيه أن كل نفس لابد أن تحل بجسم مناسب لها يوم القيامة ، ومهما يكن من أمر ، فان ذات الانسان الحقيقية هى الروح ، وليس من المهم أن نعرف من أية مادة يتكون الجسم الأخروى .

(١٢) هذه هى المسائل الثلاث التى يكفر الغزالى بها الفلاسفة ، لمخالفتهم فيها كافة المسلمين — أما المسائل الباقية ، من المسائل العشرين ، فيقول بتبديعهم فيها وإن كانت معظم النتائج التى وصلوا اليها صحيحة فى ذاتها ، وإنما يحكم بتبديعهم لاعتمادهم فى براهينهم على مجرد الدليل العقلى الذى لا يثق هو بحجته .

وهذا ما سنبحث عنه فى مقال آخر إن شاء الله تعالى

حامد عبد القادر

---

(١) تهافت ص ٨٦ (٢) ص ٨٨ منه (٣) تهافت ص ٨٨